القصص

دار الاصلاح

للدكتور محمد عوض محمد

كنا نتذاكر حديث الحسن الموهوب والمجلوب . فقلت لصاحبي : رحم الله ذلك الشاعر العربي القديم ، الذي كان ينادي بأنه ليس من يخدعه مظهر الجمال ، ولا يستهويه طلاء مصطنع ، أو رواء متكلف ، ولا يفتنه حسن مجلوب بتطرية . أو جمال مشترى من دكان العطار . وكأني أراه إذ يجلس على دكة أمام داره يتأمل الوجوه الحسان إذ تروح وتغدو ، فاذا رأى وجها عليه من التجمل أكثر مما به من الجمال ، أقبل على جلسائه ضاحكا ، وأنشدهم من شعره أبياتاً ساخرة ، يختمها بالسؤال المشهور :

« وهـــل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟ »

وكان يلقى السؤال فلا يسمع من جلسائه سوى الاستنكار . . ذلك أن الناس في ذلك الزمان قد حكموا على العطار المسكين حكما قاطعاً ، بأنه عاجز كل العجز ان يصلح ما أفســده الزمان . . . . وأكبر ظني أن العطار نفسه — وان أنكر هذا الحكم جهاراً — قد آمن به سراً .

فقال صاحبي : غير أن هذا الحكم الصارم ما هو الا كسائر الاحكام ، عرضة لأن يتغير ويتبدل ، حين يتغير الزمان والمكان ، ولم يبق لدى اليوم شك في أننا بتنا في زمن قد علت فيه دولة العطار ، وتألق نجم عزه ، وأصبح قادراً على أن يثبت أن في وسعه إصلاح ما أفسده الزمان .

فأنصت إلي كي أحدثك عن (دار الاصلاح) . فان حديثها طريف معجب . . قصدت في الصيف الماضي الى بلاد الانكليز ، وقضيت شطراً من الزمن في عاصمتهم ، وأنت تعلم أن من عادتي أن أقضي الصيف في مدينة النور ، غير أني اضطررت هذا العام أن أستبدل بها مدينة الظلام . ولا أحسبني آسفاً على زمني الذي قضيته هناك .

أما الدار التي أدعوها (دار الاصلاح) فقد كان من أمرها اني ذهبت ليلة ألتمس ملهى أقضي فيه المساء . فجعلت أطوف بشوارع لندن ذات الطول والعرض ، متنقلا بين اكسفورد ستريت الى شافتسبري أفنيو ، الى بيكاديلي ، الى لستر سكوير . . متأملا المسارح ظاهراً ، ومستفسراً عما اشتملت عليه باطنا ، حتى وقعت عيني على مسرح (الحمراء) ، فأعجبني منه ذلك المظهر الشرقي المتقن ، كما أعجبني ما بداخله من نقوش عربية بديعة ، فيها ما يكفي لتبرير ذلك الاسم الأندلسي . وكانت به عندئذ جماعة من الراقصين الروس وهم حـــديث الأندية في لندن في ذلك الوقت . فلم يطل ترددي وبادرت بشراء تذكرة .

ونعمت ليلتي تلك بمشاهدة رقص عجيب ، والانصات الى نغمات موسيقية شائقة . فلقد نبغت تلك الجماعة في محاكاة الموسيقى الدقيقة العويصة بحركات جسدية ناطقة . وفي ترجمـــة النغمات المطربة المشجية الى وثبات وخطوات واهتزازات ، تكاد تفوقها شجواً وطرباً وابداعا . ولست أنسى حتى الساعة كيف منلوا لأعيننا (الحظ) بحركات الراقصين والراقصات على عزف الآلات ، فكنت كأنما أرى بعيني — مجسما أمامي — كيف يقبل الحظ ، فاذا السعادة قد ملأت الكون ، واذا الوجوه تطفح بالبشر ، واذا السرور باسط جناحيه ، ثم تراه بعد ذلك مدبرا ، فاذا السرور قد استحال حزنا ، واذا العالم قد امتلأ هموما وشجنا . . ولا حاجة بي الى الافاضة في ذكر ذلك الرقص ، الذي لم يكن له صلة بدار الاصلاح ، لولا أنني في فترات الاستراحة كنت أنظر في كراسة اشتريتها قد اشتملت على برنامج الحفلة ، وعلى كثير من الاعلانات . وكانت الفترات طويلة فأعدت قراءة هذه الكراسة مرارا . ولم يفتني مما بها شيء . وقد لفت نظري اعلان بها عن (دار الاصلاح) : فرأيته يزعم أنها دار معجزات ، تدخلها العجوز الشوهاء ، فتخرج منها غانية حسناء . .

وكأن ليس بالعالم دمامة مهما قبحت ، ولا سحنة مهما اقلبت ، إلا وفى وسع أصحاب هذه الدار أن يحيلوها الى حسن باهر وجمال بارع ، ويزعمون أن ليس الاصلاح لديهم من سبيل الترقيع الذى يزيد القبيح قبحا ، والدميم دمامة . بل هو اصلاح شامل كامل ، يلف المرء من قمة رأسه الى أخمص قدمه ... قرأت هذا كله فابتسمت ابتسامة الساخر . وعند مغادرتى المسرح همست بأن التى بهذه الكراسة بعيدا ، ولكنى لم أفعل ، بل طويتها باعتناء ووضعتها فى جيبى . وكأنما كنت حريصا ألا يضيع منى عنوان تلك الدار .. فمن يدرى لعلى يوما أن تثور نفسى على هذه الصورة التى صحبتنى كل هذه السنين فأريد ان أستبدل بها صورة أحسن منها ..

ومضت على تلك الليلة أيام قلائل . وإنى لجالس فى صباح يوم اطالع (التيمس) فى شىء من الكسل ، اذا بصاحبة الدار تعلن إلى أن صديقاً يريد أن يرانى . وكانت دهشتى غير قليلة حين رأيتنى أصافح صديقى عيسى الذى تركته فى القاهرة ، وكنت أحسب أن بينى وبينه أقطاراً وبحارا .. « عجبا ما الذى أتى بك ؟ »

فحدثنى أنه قضى أياما فى البحث عنى ، حتى اهتدى بعد لأى الى مكانى ... ولقد غادر مصر فجأة حين نصحه أصدقاؤه أن يلتمس علاجا فى هذه البلاد لتلك الحال القاسية التى لم يعد يطيقها . ذلك ان المسكين قد زاد وزنه ، واكتسى اللحم والشحم طبقات بعضها فوق بعض .

فقلت له حييت أيها الصديق ، وأيا كانت الدوافع التى جاءت بك الى هذه الديار ، فانها من غير شك دوافع قوية حتى تستطيع ان تحرك هذا الجسد العظم ـ فمرحبا بك على كل حال ... ولست أدرى ياعيسى هل يتاح لك ان تظفر ببغيتك فى هذه البلاد . إننا قد سمعنا من قبل عن معجزات الانبياء رضوان الله عليهم الذين استطاعوا أن يبرئوا الاكمه والابرص ، وأن يحيو الموتى باذن الله .

ولكن لم نسمع بعد بالانبياء الذين يستطيعون ان يجعلوا منك شابا رشيق القوام .

قال أحسبك قد نسيت أننا فى زمن العلم والاختراع ، وفى عصر الكهرباء والبخار . ولو انك تذكر هذا لما استكثرت على العلم الحديث هذه العلمية اليسيرة التى تدعوها معجزة .

قلت حقا إن فى عصرنا لمعجزات كبرى . فلقد استطاع البخار ان يحملك من غير عناء كبير ، حتى أبلغك هذه الديار . ولكن قل لى بابيك ، أليس من تكد الدنيا على الحر ان مثلك لا يدفع ثمنا لقله من مصر الى لندن اكثر مما يدفعه مخلوق ضئيل هزيل مثلى ، ولو كان فى العالم إنصاف لاقتضوك الثمن أضعافا مضاعفة . فان عشرة من أمثالك على ظهر باخرة ، لخليقون أن يحولوها عن مجراها فتشرق بدلا من ان تغرب ، وتميل الى افريقية بدلا من أن تتجه نحو لندن

فقال انك ما زلت فى ضلالك القديم ، ولم تلطف حلاوة هذه البلاد من طبعك الحامض .. فاعلم اذن أن الأمر عكس الذى توهمت . فان أصحاب البواخر يغتبطون لوجود الركاب ذوى الوزن الثقيل ، لأن هذا مما يجعل السفينة تمشى فى رزانة واتزان . ولو لم يتح لهم أمثالى ، لاضطروا أن يستعيضوا عنا بعدد عظيم من أكداس الرمل يجعلونها فى قاع السفينة ... والآن هلم بنا نتطلق الى إحدى تلك الدور التى يدعونها معاهد الجمال . فقد سمعت أن فى هذه المدينة منها عددا ليس بالقليل . وأفهمت انهم يستطيعون أن يحيلوا المرء إلى أية صورة شاء .

عند ذلك ذكرت الليلة التى قضيتها فى (الحمراء) . وتناولت تلك الكراسة . وقلت لصاحبى — وأنا أحاوره — لست أدرى أيليق بنا أن نسمى تلك الدور معاهد الجمال . أو ليس الأقرب الى الصواب أن ندعوها معاهد الدمامة ؛ إذ لا يؤمها من الناس الا من كان مثلك يحاول اصلاح ما أفسده الدهر .. وإنى لهذا السبب قد سميتها دور الاصلاح ، وقد ألقت المصادفات فى يدى اعلانا عن واحدة من تلك الدور . ولست أضن عليك بأن أصحبك اليها ...

***

وقفت بنا السيارة أمام دار فى حى (سوهو) لايئم ظاهرها المتواضع عن باطنها الفخم . وكان استخراج عيسى من بطن السيارة ليس بالأمر اليسير . ولقد نفحت السائق نفحة حاتمية جعلته يغض الطرف عما عانته سيارته من جهد ومن عناء . وقد علمتنى التجارب أن الدراهم خير لجام للأفواه فى لندن كما فى سائر البلدان .

ودخلت الى دهليز الدار أجر معى هذا الكثيب العظيم من اللحم والشحم . فأسلمنا الدهليز الى فناء فى جوانبه أرائك وكراسى ، وقد طلب الينا أن نجلس قليلا ريثما يؤذن لنا . فاخترت لعيسى من الكراسى أصلبها عوداً وأشدها مراسا . وجلسنا نتأمل فيما حولنا فرأينا فناء مفروشا بشىء كثير من الذوق وحسن اختيار للألوان ، وكان يغلب فيه اللون الأزرق والأحمر ، وعلى الارض وفوق الجدران بسط وطنافس شرقية . وفى أحد الأركان موقد لم يكن به نار ، بل كان مستوراً بغطاء مزخرف ، وفى هذا الفناء خمسة أبواب يفضى كل

منها الى حجرات عديدة ، وفى ناحية منه سلم ينتهى الى الطوابق العليا

فقلت لصاحبى محاورا : إن اليوم لشديد الحرارة ، وأراك أخذت تتصبب عرقا . فعسى هذا الحر أن يذيب قليلا من هذا الشحم لكى تقل نفقات (الاصلاح) . . . على أنى لو كنت مكانك لادخرت هذا العرق الى حين تلقى المدير الأعظم لهذه الدار . فانه سيفاجئك بامتحان عسير ، لم يكن ليخطر لك ببال . علمت أنهم سيطلبون اليك أن تجلس على كرسى واطىء ، وأن تضع رجلك اليسرى على اليمنى ، وتلفها حولها لفا محكما ، وأن تميل برأسك الى الامام حتى تمس به ركبتيك ؟ ثم تستلقى على ظهرك من غير حراك ، وتؤتى بدبابة متينة فيمرون بها على بطنك ذهابا وايابا . أجل ، هذا وأمثاله من الأمور التى ليس لك عنها مفر . فاستبق عرقك إذن ، فانك فى حاجة اليه . ولا تظن أن فى قولى هذا غلوا . فان الاصلاح ليس بالشىء الهين . . . سل المصلحين قديما وحديثا ينبئوك أن إصلاح بنى الانسان من أشق الأمور . . وناهيك بالجوع الشديد الذى لابد لك أن تشقى به بضعة أشهر ، تحرم فيها الطعام والشراب الا قليلا . فلا يكون لك مندوحة عن أن تأكل من لحمك ودمك كما يفعل العشاق .

وعلى ذكر العشاق ، لقد هممت أن أقترح عليك العشق علاجا شافيا مما ألم بك ، فلقد يزعمون أن الهوى باعث على النحول والانضمار — خصوصا إذا بلغ المرء فيه مرتبة الشغف والهيام والوله — ولقد هممت أن أسألك أن تعشق لكى تكتسب النحول والرشاقة . ولكنى راجعت نفسى وذكرت أن الحب لن يصيب أمثالك ، فانه سيلقى من دون قلبك هذا السور المنيع من الدهن والدسم ، الذى لا تنفذ منه سهام الحب ، ولا تخترقه قنابل الغرام . . . وأى حب يحترم نفسه يرضى أن يسكن مثل هذا المنزل ؟ اذن لم يبق بد من تلك الطريق الوعرة التى تساق اليها الساعة .

هذا وقد جعلت أتأمل فيما حولنا من الناس ، فاذا هم مجموعة من الكائنات ما كدت أحسب أن فى العالم حجرة تستطيع أن تضمهم جميعا . قد كان عن يمينى زنجى مفلفل الشعر أسود البشرة . وعن يسارى رجل من المغول أفطس الأنف ، أصفر الجلد مائل العينين ؛ وكان هناك نساء ورجال . ليس فيهم من لم يرزق من شذوذ الخلق طرافة نادرة وتحفة عجيبة . وقد جاءوا جميعا ينشدون (الاصلاح) .

ولم يطل جلوسنا ، حتى ذهبوا بنا الى احدى الحجرات ، فاذا نحن أمام امرأة نصف ، بائعة القوام ، مستديرة الوجه ، ضاحكة السن ، قد قصت شعرها الأسود الحالك قصا محكما ، بحيث أصبح رأسها المستدير أشد استدارة . ولم تكد ترانا حتى هشت لنا وبشت . وقالت : أما صاحبك فلست بحاجة لأن أسألك ما خطبه . . . وأما أنت فما أكاد أتبين ما تشكوه . . . لعلك تشكو اعوجاجا قليلا فى الأنف . فان به ميلا يسيرا عن (السمترية) . . . وعلاج هذا أمر هين . فان لدينا عددا من الجراحين ذوى أيد صناع ، لاهم لهم فى الحياة غير تقويم ما اعوج من الأنوف . وتخفيض ما تأمنها وما برز ، ورفع الافطس منها واعلاء شأنه بين الملأ ، ولقد يصادفون فى هذا السبيل عقبات لكنهم يتغلبون عليها ، برغم أنفها . . . !

وأعجب شىء لدينا رجل من الصين ذو أنف شديد الفطس حتى لا تكاد تراه ، وكأنما الناس قد اتخذوا وجهه مقعدا أو متكأ ، وكنا أول الامر عاجزين عن معالجته بما لدينا من الآلات ، لكننا الآن قد اتخذنا له آلات خاصة ، ولا شك عندنا فى النجاح العاجل فيخرج هذا الصينى من معهدنا بأنف معتدل جميل ، يستطيع ان يشق به لنفسه طريقا فى الحياة . . أما أنت فخطبك يسير جداً . . . حدق فى وجهى ! . . إن ميل أنفك عن السمترية لا يتجاوز الخمس درجات . . . .

هكذا أخذت تحدثنا هذه المرأة . ولكنى كنت راضيا عن أنفى ، ولم يكن لى فى إصلاحه مأرب . . فسألتها أن تعنى بصاحبى ، وتبذل له كل ما فى دارها العظيمة من وسائل الاصلاح ؛ حتى يعود وشيقا نحيل القوام . فنادت خادما وسألتها أن تذهب بصديق الى المكتب الثانى عشر . فانطلقا وبقيت مكانى ، لا أدرى ما أفعل . . فقالت اجلس فان صديقك سيعود بعد لحظة .

فاستطيع متى وصلنى التقرير عنه أن أخبركما عن مدة العلاج والأجر الذى تتقاضاه . ان معهدنا هذا قد اشتهر أمره حتى بات كعبة القاصدين من أطراف العالم . أما أنتما فلا أشك فى أنكما من أهل مصر . فقد أصبحت لكثرة ما رأيت من الوجوه لا يكاد يخفى على أمر أحد . ان علم الجمال العملى قد ارتقى ، حتى أصبح لدينا علاج ناجع لكل شائبة تشوب الجسم وتنقص من حسنه . ولدينا أقسام تعنى بالقوام ، وأخرى بالشعر وبالوجه وبسائر الجوارح والاعضاء . ولدينا قسم جليل الشان همه أن يكسب الكهول من رجال ونساء رونق الصبى ومظهر الشباب ، وكم من غانيات قد خرجن من